

## الآثار السورية : الفنى والاصالة

### دراسة ميدانية

د. عدنان البني

المديرية العامة للآثار والمتاحف

يقول استاذنا الدكتور سليم عبد الحق في عنوان مقالة من مقالاته البليغة : « سورية أرض عربية تطفح بروائع الآثار » وكم كان موفقا في اختيار كلمة « تطفح » . ولا أراني أوفق لأوفى من هذا التعبير في بحثي هذا . فسورية طافحة فياضة بالآثار حقاً ، لا يعرف عدد المواقع والاوابد فيها . وليس سراً أن خمسين عاما من التحريات الاثرية والمسوح الجوية والارضية من كل صنف ولون ، وحملات استكشافية إثر حملات ، لم تعط حتى الآن رقما ولو تقريبا لعدد المخلفات الاثرية في أرضنا الطيبة . ويمكن القول أن هذا العدد لا يقل عن عشرة آلاف . وهو احتياطي أثري جبار ، ولكن المسجل منه قد لا يزيد على الثلث . هذا ولا شك في أن المئات من هذه المواقع والاوابد طمس ويطمس في المشاريع الخاصة والعامة ، أو لدوافع أخرى . ومن الواجب قوميا وعلميا أن تنتهي حملات التسجيل الاثري في كل المحافظات لنعرف القائم والمندرس من آثارنا . وأن التطور السريع في الطرائق العلمية التي تهدف للكشف عن المواقع والاوابد المغيبة والفارقة ، وبخاصة الاقمار الصناعية الراصدة ، سيعجل في هذه المهمة الصعبة مستقبلا .

\* \* \*

نردد دوما ، ويردد غيرنا ايضا أن سورية جنة الآثار والآثريين . ونفهم من هذا عادة وفرة الآثار وانتشارها . والحقيقة أن المقصود ، مع الوفرة ، التنوع والتفرد والاصالة ، والعمق التاريخي والبعد الانساني . فوراء الفنى والتنوع تكمن عوامل كثيرة ، أولها الموقع الجغرافي الفريد لبلاد الشام ، ثم المناخ المعتدل وتنوع البيئات والمنتجات . وثمة عامل أساسي ، من قبل ومن بعد ، هو انفتاح بلاد الشام وحركتها اخذاً وعطاءً منذ أقدم العصور وتقبلها الموجات والتيارات ، وانسياب انسانها شرقا وغربا ، كانت سورية ، منذ فجر التاريخ ، تتلقى موجات الجنس العربي ، هذا الجنس النشط القوي الحاد الذكاء ، وهو الذي رسخ فيها الكتلة السكانية الاصلية منذ الالف الرابع ق.م على الأقل ، وفقا لمعطيات علم الآثار الحديث . ولما كان هذا الجنس يتصف بقابلية فائقة على التفاعل مع الآخرين ، واتساع الافق والتسامح ، فقد اخذ واعطى حضاريا وسياسيا واقتصاديا ، واتصل بالعالم القديم كله ، وكون في بلاد الشام

حضارة لها في كل وقت صفات أصيلة ومبتكرة لم يزل تأثيرها واضحا من الاندلس حتى طشقند . واحتكت هذه البلاد بتيارات بشرية جانبية ، عن طريق التجارة أو الهجرة أو الحرب ، وكان لوجودها ، القصير أو الطويل نسبيا ، أثر في تكوين حضارة متينة أصلا كانت تغزو الفازي ، وفي اكتشاف المدنيات الوافدة إليها ذاتها مرة أخرى في ربوعها . وقد انطلق أبناء سورية الى العالم حكاما وفلاسفة وفنانين وبنائين وعباقره من كل نوع يسهمون في بناء الفكر الانساني العالمي في مواطنه الاصلية ، وكان لذلك كله انعكاس على آثار سورية ، ونورد في هذا الصدد قولاً للاستاذ بول كولار الذي كان رئيسا للأكاديمية السويسرية في روما وأمين السر العام للرابطة الدولية للآثار الكلاسيكية وهي أقوى تجمع للآثاريين في العالم :

« تبدو لنا سورية منذ أقدم العصور أرض تلاق بين الحضارات ، وان غناها بالآوابد الاثرية لهو الدليل الواضح على تاريخها العريق . ولا يوجد مكان آخر في العالم تتجلى فيه آثار الماضي يمثل هذا التنوع المرتبط بمثل هذا الاستمرار » (١) .

واقول ببساطة ان دور سورية يقوم على اسهامها البارز في قصة الحضارة العربية والانسانية ، واننا لنعرف من آثارها القائمة على تربتها أو المنتشرة على رقعة العالم القديم ، أنها أبدعت فنا وعمارة وصناعة على جانب كبير من الاصاله والدقة ، وقامت بالوصل حضاريا وانسانيا بين أجزاء العالم القديم ، فربطت الرافدين والناضول بوادي النيل وبحر ايجه والبحر المتوسط ، منذ الالف الثالث ق.م ، أو قبل ذلك في رأي بعض الباحثين ، ونقلت نتائج الفكر والابداع عن طريق الابجدية ، أنبل مبتكرات الفكر البشري ، ومنها انتشرت اللغة والكتابة الآرامية الى الهند وأقاصي مصر الجنوبية وسادت عالم التجارة والعلاقات الدولية ما يزيد على ألف عام .

\* \* \*

ان أحداث التاريخ القديم في سورية ترمم حاليا بعشرات الاكتشافات الخارقة للعادة ، من « أوغاريت » الى « ماري » الى « سميرا » الى « إبلا » الى « بروتو » الى « شوبات إنليل » الى « دور كتليمو » الى « تائيدو » الى « إيكالتي » الى « زلفا » و « توتول » . وسأختار بعضا من معلوم الآثار السورية ومجهولها وأضع بعض الاضواء على جماليات وخصوصيات العمارة والفن الاثريين في مختارات من المبدعات القائمة على الارض العربية السورية حصرا . . ولن أترك الى أقدم وأول إناء فخاري في المربط على الفرات منذ عشرة آلاف عام ولا الى تخطيط مستوطنة بقرص وصناعتها الحجرية البالغة الروعة منذ تسعة آلاف عام ، وأول المبدعات التشكيلية في هذه المواقع وفي مواقع متعددة أخرى حول دمشق ، ولا الى روائع المنتجات الخزفية والعاجية والخشبية عبر العصور . . سأصطفي . . واقطف من كل بستان زهرة وأعرض منتخبات من عمائر في مواقع معلومة وأخرى مجهولة أو شبه مجهولة .

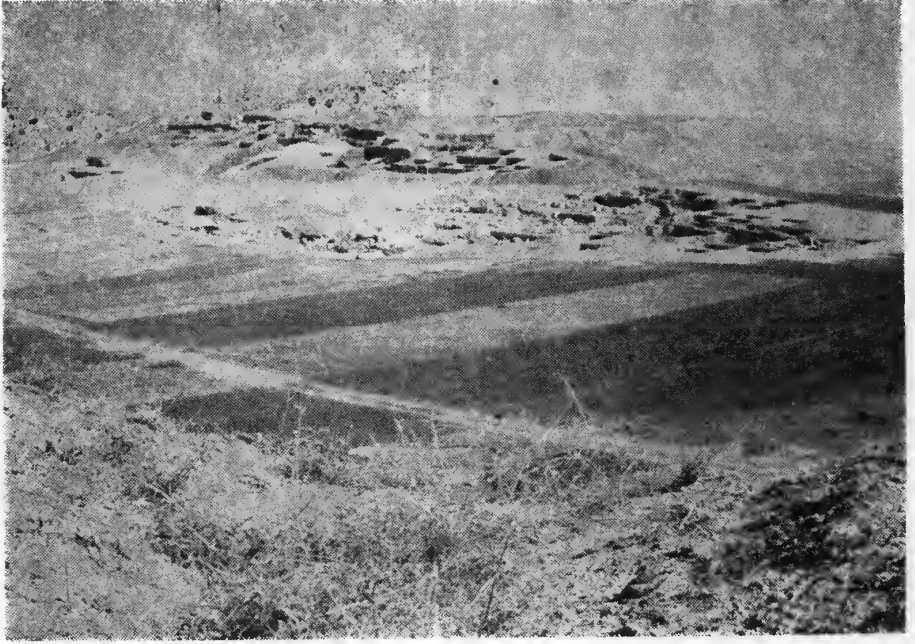
في الالف الثالث يبدأ الزمن المعروف في المصطلح الاثري باسم عصر البرونز القديم، وفيه بداية تشكل البنى الثقافية والدينية والسياسية المتطورة نسبيا في بلاد الشام التي عرفت ، في تلك الفترة ، انتشار العديد من المستقرات المدنية (المدن) . لقد حدث آنذاك ما يسمى بحضارة المدن أو التطور المدني . بدأ هذا التشكل في النصف الاول من الالف الثالث ونضج نضوجا فائقا خلال نصفه الثاني فأفرز ممالك مدن باهرة في مواقع دمشق وحلب وحماة والمشفرة ورأس الشمرة وتل النبي مند وتل مردوخ وتل الكزل وتل عطشانة وتل براك وتل العشارة وتل ليلان الخ . . وذلك ، فضلا عن المواقع القائمة الآن في لبنان مثل جبيل وكمودي ، وفي الارض المحتلة مثل أريحا ومجدو ، وغير ذلك مما يخرج عن نطاق هذا البحث .

هذه المراكز المدنية (أو المدن اختصارا) اتصفت بالاتساع ، وبعضها ، في مناطق البناء باللبن ، بلغت مساحته خمسين هكتارا وبعضها أكثر من ذلك ، كما كان من مميزاتها بناء الاسوار المنيعة وتطور أنماط الانتاج الفني والسلمي وازدهار صناعة المعادن وترقي الكتابة وتعاطي التجارة الاقليمية والدولية . . . وأهم من ذلك ، أو نتيجة ذلك ، امتلاك تلك المدن للادارة السياسية المنظمة والوصول الى مستوى معين من الحكم والحكام يضفي عليها مظاهر دولة لها سلاطات وسجلات ومراسلات ويتضح فيها الاختصاص بين القصر والمعبد بشكل كاف .



ان **إبلا** هي احدى تلك المدائن السورية التي اتسعت وازدهرت في فترة الحضارة المدنية . . . وقد دُبِّجت حولها مئات ، بل ربما ألوف وعشرات الألوف من الصفحات هنا وفي الخارج ، وأدلى كثيرون دلوهم في بئرها ، فلا حاجة لتكرار ما ذكر عنها ، لنقل باختصار ان قوة إبلا كانت مستمدة من حيوية اقتصادها ، وكان تجارها يجوبون الآفاق ويعملون في تجارة اللازورد والأخشاب والأصواف ، وكان ملوكها يتبادلون الهدايا مع ملوك مصر ، وكانت تصنع النسيج الجميل والخشب المنزل والاثاث وتعالج المعادن المستوردة وتبدع في صناعة الطي ، وتزرع ، وتربي القطعان . كانت مزدهرة في كل المقاييس . أما قصرها الملكي فقد تركزت فيه أكثر المميزات التي أتينا على ذكرها وسنحدد مهمتنا في عمارته التي هي نمط سوري متقدم من العماثر (٢) .

في موقع إبلا رابية طبيعية أقيم عليها في الربع الثالث من الالف الثالث ق.م قصر منيف يعرف باسم القصر G ويختلف في مفهومه المعماري ، وفي تصميمه وأنشائه وزخرفته ، عن المعروف آنثد في بلاد الرافدين مثلا . وان التنقيب شمل حتى الآن حوالي ثلاثة آلاف متر مربع من القسم المتبقي من هذا القصر الواسع الامتداد . ونقول القسم المتبقي لأن الائتكال في منحدر رابية الاكروبول ( الحي الحالي ) قد أزال الى الابد الاجزاء الغربية من القصر بما في ذلك الجانب الادنى من الباحة الرئيسية المعروفة



منظر عام لتل مردبخ ( ابلأ )

باسم باحة الاستقبال الملكية ، كما أن الاقسام الشرقية من القصر كانت مغبية تحت ركام السويات الاثرية الاحداث عهدا . وقد باشرت البعثة الايطالية في العام الماضي التنقيب في هذا القسم في قمة الاكروبول فوقعت على قسم جديد كان مكرسا لاعداد الولاثم الملكية ومعالجة الحبوب والزيتون .

ان أحدث الدراسات التي جرت حول هذا القصر توضح أنه تكون نتيجة تلاحم تم ، خلال مدة من الزمن ، لأجنحة وأجزاء مختلفة المهمات ، انضافت الى نواة او عدة نويات سابقة ، نظر بعين الاعتبار في تصميمها الى الوضع الطبيعي لمنحدر الرابية الجنوبي الغربي . وعند انتهاء هذا المجمع أصبحت له ثلاثة أدراج تؤمن الاتصال مع أجزاء القصر في السويات الاعلى : في الجنوب درج البوابة الكبرى المؤدي للقطاع الاداري حيث وجدت المحفوظات الملكية ، وفي الوسط درج الشرف الذي كان مجهزا بالاخشاب المنزلة بالصدف وهو يقوم في صدر باحة الاستقبال ويدور داخل برج حصين مؤديا الى الشقق الخاصة ، ويبدو أن الملك كان يستخدمه في مناسبات الاستقبال العامة . اضافة الى درج ثالث صغير في الشمال .

ان الدرج الذي سميناه درج الشرف ينطلق من صدر باحة أو ساحة يبلغ سمك جدرانها نحو ٣ أمتار معدة لاستقبالات الملك أو المراسم بشكل عام . طولها نحو خمسين مترا ، وهي مظلة بالاروقة المحمولة على عمد خشبية ضخمة . وتحت الرواق الشمالي تقوم منصة كان فوقها كرسي العرش .

في رأي البعثة المنقبة ، يلاحظ ان القصر اجمالا ، وبخاصة باحة الاستقبال، تغلب فيه الناحية العمرانية على الناحية المعمارية . ان وضع هذا القصر وبالتالي هذه الباحة على مشارف المدينة التي تحتها . يؤمن الربط بين الحي الرسمي والمباني الادارية والسكن الرسمي واحياء المدينة في السهل . وفي ذلك مفهوم مغاير لما في الرافدين حيث يكون القصر مجمعا اداريا وسكنيا مستقلا يقوم على تخطيط مسطح يكرر اقسام القصر حول باحة مركزية .

وبعد قضاء الملك الابادي نرسمين حوالي ٢٢٥٠ ق.م على قوة إبلا العسكرية والسياسية ، سكنت الاخبار عن هذه المدينة حتى وجدناها في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد تنبعث على يد سلالة أمورية جديدة تتصرف بفعالية اقتصادية فائقة وتصل علاقاتها حتى مصر ، الامر الذي تدل عليه المكتشفات الهامة العائدة لذلك الزمن ومنها المنشآت الضخمة الجديدة . وفي مقدمتها قصر جديد رحيب يعرف عادة باسم القصر الغربي ( قصر Q ) أو قصر ولي العهد مؤرخ بين ٢٠٠٠/١٩٠٠ ق.م . وقد تم التنقيب في هذا القصر بشكل كامل واتضح ان مساحته نحو ثمانية آلاف متر مربع ، واقصى طول له ١١٥ م وعرضه بين ٦٠ - ٧٥ م . ولما كان هذا القصر محفوظا بكامل تفصيلاته ولو على مستوى الاساسات او المداميك الاولى ، فقد اتضح ان تخطيطه يقوم على تجمع وحدات سكنية أو كتل معمارية منتظمة منفصلة عن بعضها لكنها متصلة وظيفيا ، وهو بذلك يختلف عن القصور الرافية المعاصرة التي تتألف من وحدات سكنية أصغر تتجمع حول باحة مركزية . ومن الخصائص التي يتصف بها هذا القصر الانتظام الثابت للغرف وتعامدها مع الباحات ومع الجدار الخارجي للمنشأة ، في حين تتوازي الغرف في القصور الرافية مع ضلع الباحة ومع الجدار الخارجي في وقت واحد . كما ان حركة التنقل داخل القصر مختلفة ، اذ نرى ان المداخل المفتوحة في جانبي كل باحة من باحات الوحدات السكنية تسهل نوعا من الدوران الدائم في كافة أرجاء القصر . وتحت هذا القصر وجدت مدافن ملكية من ١٨٠٠/١٦٠٠ ق.م اوضحت المكانة السامية التي بلغها فن الصياغة الابلية تلك الايام . وثمة قصر شمالي من الفترة الامورية نفسها يعرف باسم القصر الشمالي ( أو قصر P ) وهو في رأي بعثة التنقيب مركز مكرس للاحتفالات الملكية، وبقربه معبد للرب حدد يعد الان اكبر واقدام معبد سوري من النوع الوحيد الحجرية . وقد وجدت في القصر وفي المعبد منحوتات بازلتية تمثل

أربابا وحكاما وتعد فتحا في تاريخ النحت القديم ، لكننا لا نريد الخوض في أمرها قبل أن ننشرها البعثة النشر العلمي المرتقب .

\* \* \*

ومن معالم الالف الاول قبل الميلاد أبدة سورية فريدة تكوّن حلقة بين المعروف من معابد الالف الثاني قبل الميلاد ، والمعابد ذات الطراز الكلاسيكي اليوناني الروماني التي أخذت تنتشر في بلادنا بدءا من العصر الهلينستي . وهي معبد آرامي من القرن الثامن قبل الميلاد يتسّم **تل عين دارا** ، (٣) في موقع مهيب في نطاق مملكة أرباد لا نعرف اسمه القديم ، قائم على الضفة اليسرى لنهر عفرين في بقعة جميلة ومنتزه شهير يقصده الحلبيون .

ان تل عين دارا مشكل من عدد من السويات الاثرية ، يعود المعبد للسوية السادسة منها . وهو مشيد في معظمه بالحجر البازلي ، ومخططة على شكل مستطيل طوله ٣٨ مترا وعرضه ٣٢ م موجه بزاويه ، وليس بجدرانها ، الى الجهات الاربع ، يقوم على مصطبة ارتفاعها متران مزينة بنقوش بارزة تمثل سباعاً وأشكال أبي الهول . ويكتنف حرم المعبد رواق يحيط بثلاث جهات ، عرضه أربعة أمتار من



مدخل معبد عين دارا

الجانبين وثلاثة من الخلف . يَدْخُلُ الى المَعبَدِ بِمَمرٍ في الجنوب الغربي تحرسه منحوتات السباع ، له عتبتان على الاولى نحت شكل قدمين كبيرتين ، وعلى الثانية نحت شكل قدم أخرى . يفضي المدخل الى ردهة ( ١٦ × ٧ م ) زينت جدرانها بمنحوتات ضخمة بينها أشكال ارباب ، ثم عتبة نحت فيها شكل قدم يمينى وهي حتما القدم الذي يجب أن يتقدم بها الداخل الى هذا المكان ، فاذا دخل للتعبّد ولتقديم القرّبان انفتح امامه حرم ( ١٦ ر٥ × ٢١ م ) في صدره ما يعرف عادة بقدس الاقداس ( وهو بيت الصنم أو الاصنام ) وفي صدره قواعد حجرية مزوقة بأشكال تمثل ارباب الجبال . وكان هناك على الراجح صنمان للربّين حدد وعشّرة . ان هذا الشكل من المعابد ذات الشكل المستطيل والمدخل المحوري (المعروفة باسم المعابد السورية) تقاليدها قديمة في بلادنا، وشكلها ظل متبعاً تقريباً حتى آخر عهود الوثنية على الأقل .

\* \* \*

**عمريت** ( أو **أمريد** في اللفظ المحلي ) اسم كنعاني يرجح أنه مشتق من العمار ، يطلق على موقع في حدود نحو خمسة كيلومترات الى الجنوب من مركز مدينة طرطوس تنتشر فيه أبنية أثرية وأوابد عديدة تتوزع على طرفي نهر صغير يعرف باسم نهر



مَعبَدِ عَمْرِيت

عمرية . عُرِفَت عمرية أيام السلوقيين والرومان باسم « ماراتوس » . وهي تعود للألف الثاني ق.م على الأقل . لكن ازهر أيامها كانت في الألف الأول وبخاصة في القرن الخامس ق.م حين كانت في يد الرواديين . سقطت عمرية في يد الاسكندر والسلوقيين ، ومُرت أيام حتى عاد إليها الرواديون بعد استقلال أرواد في ٢٥٩ ق.م (٤) .

لن نتحدث عن مدافن عمرية الباذخة الفريدة ولا عن ميدانها الشاسع ، بل سنتناول معبدها المكرس لرب الشفاء ، وهو معبد ينفرد عن كل معابد الشرق والغرب ببحيرته المقدسة التي ليس ثمة ما يماثلها إلا في معبد منبج .

يعود معبد عمرية في وضعه الراهن تقديراً للقرن الخامس ق.م . وهو محفور في الصخر على شكل حوض طوله ٤٨ متراً وعرضه نحو ٣٨ ، وعمقه ٣ أمتار تتوسطه كتلة صخرية فيها بيت أو هيكل المعبود ، ترتفع عن أرض الحوض نحو خمسة أمتار ونصف المتر . والهيكل كنعاني الطراز مزين بشراريف صماء ، وحول الحوض ممر عريض كالرصيف محفوظ على ثلاث جهات كان فوقه رواق محمول على دعامات مستطيلة المقطع ، وفي الجهة الشمالية كان المذبح .

أقيم هذا المعبد على نبع يتدفق من الصخر ، وهو حالياً على شكل كهف في الجهة الشرقية ، يمتد منه على الجدار الجنوبي قناة في الجدار مهيئة للتطهير . وأخرى تمتد في أرض الرواق كانت معدة للسقاية . وكان في الحوض على ما نظن ، سمك مقدس على الغالب ، ويفترق طالبو الشفاء من البحيرة ماءها المقدس بأباريق لها مصاف حتى لا يتسرب إليها السمك .

### \* \* \*

ولا بد ، ونحن في صدد غنى آثارنا وأصالتها ، من الحج الى واحة تدمر . ولن يكون مستحجباً أن نكرر السرد المألوف عنها وعن تاريخها وبهاء مليكتها الذي يخلب الأبصار ، لذلك نقتصر على بعض من خصائصها وبديع منجزاتها في الفن والعمارة .

ابتكرت تدمر فناً تشكلياً خاصاً بها ، له طابعه ، فيه مبدعون ومقلدون ، لا يمكن أن تلبس هوية منجزاته على أحد . والنحت التدمري يروي قصة كل يوم في حياة تدمر ، صلوات وأحزاناً ، وصيدا وقافلة ورجال قوافل ، وكهنة وهجانة ورماة وفتيانا وفتيات وعرائس وأطفالاً ، وروائع زينة وزري ومجوهرات يضرب بها المثل .. الخ . أبدعت تدمر عمارة دنيئة فريدة في العالم ، في شكل المدفن البرج الذي كان حلاً عقلياً ومعمارياً موفيقاً لمشكلة تشغل بال المدائن القديمة والحديثة . وإذا كان علينا أن نقدم شيئاً عن تدمر في بحثنا هذا فمن المناسب أن نصل الى قمة إبداعها وهو معبدها الكبير ومجمع أربابها الذي بني هيكله في ٦ نيسان ٣٢ للميلاد من قبل لشمش بن تيبول بن





**الهيكل المركزي لمعبد بل في تدمر**

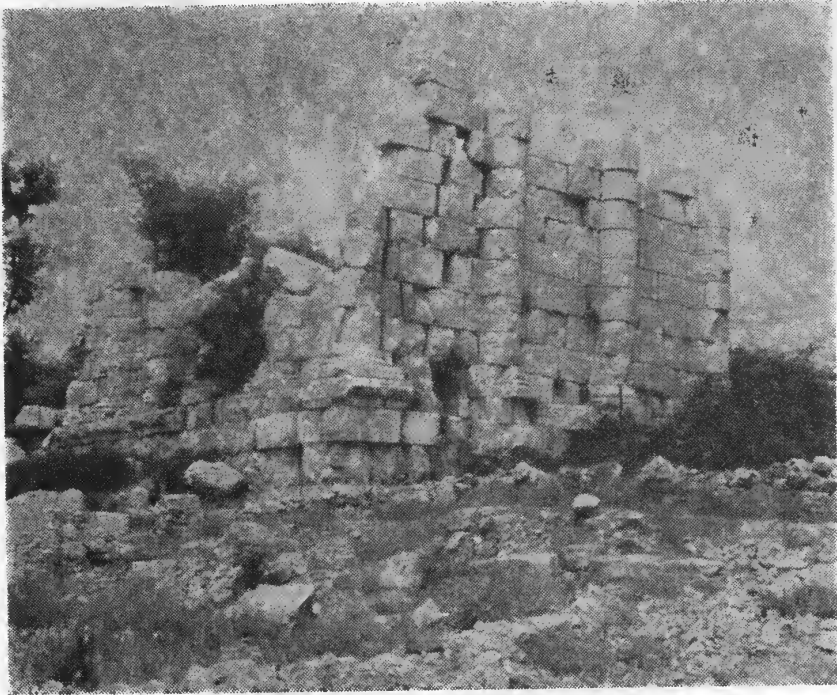
شكيبيل من بني كمر(٥) ، واتسعت رقعته مع الزمن حتى قيل ان أربعين ( بارتينونا) تضع فيه فهو واحد من أوسع معابد الشرق والغرب ، ويقوم على ركام أثري تشكل منذ الألف الثالث ق.م على الأقل .

في بواباته وأأسواره وأروقته وباحته الرحبة ، وكل تفاصيله الزخرفية ، سما معبد بل عن المؤلف كما وكيفاً وحقق ريادة متفردة واعجازاً ، وفي هيكله المركزي تألق وجمع أجمل ما في الشرق والغرب فأخذ الصيغة اليونانية في بناء الهيكل المكتنف بالأعمدة ، ومن العمارة المصرية تخير شكل البوابة الصرحية ، ووفق التقاليد السورية أقام حجرة الصنم والبرجين على جانبيها ، ومن البابلين جاء المدخل الجانبي ، ومن الهنود والفرثيين أخذ بعض عناصر الزينة ، لكن أكثر أشراطه الزينية ونقوشه البارزة كان تدمريا خالصا اقتبس من البيئة المحلية ومثل مراسم عبادته وإيمانه . وهذه المحصلة المتوازية كانت وما زالت تبهر الزائرين .

\* \* \*

في الجبال الجميلة قريبا من صافيتا ودريكيش كان يقوم المعبد المعروف باسم **حصن سليمان** . كان هذا المعبد ، في الاصل ، معبدا كنعانيا من معابد القمم الجبلية

في اقليم أرواد ، وهو يبعد عن الساحل نحو ٣٠ كم . وليس لدينا حاليا ما يشير الى الزمن الذي بدأ فيه الحج اليه ، لكن من البدهي أنه ، بسبب موقعه ، كان مكرسا لعبادة الرب بعل الكنعاني المولج بالصواعق والمطر والخصب . على أننا نعرف من النصوص أنه كان قائما زمن السلوقيين (٣١٢-٦٣ ق.م) ومنسوبا لزوس وهو الرب اليوناني المقابل لبعل ولبعل شمسين ( رب السموات ) (٦) . وكان المعبد يتبع آنسذ اتحاد المدن الاروادية السبع ذات الحكم الذاتي ، وله امتيازات وسوق تعقد مرتين في الشهر واحتفالات دينية ومواسم ، ويتمتع بحق إلقاء العائدين به . وقد وقفت عليه قرية بيتوخيخي ( بيت الخوخة ) المجاورة .



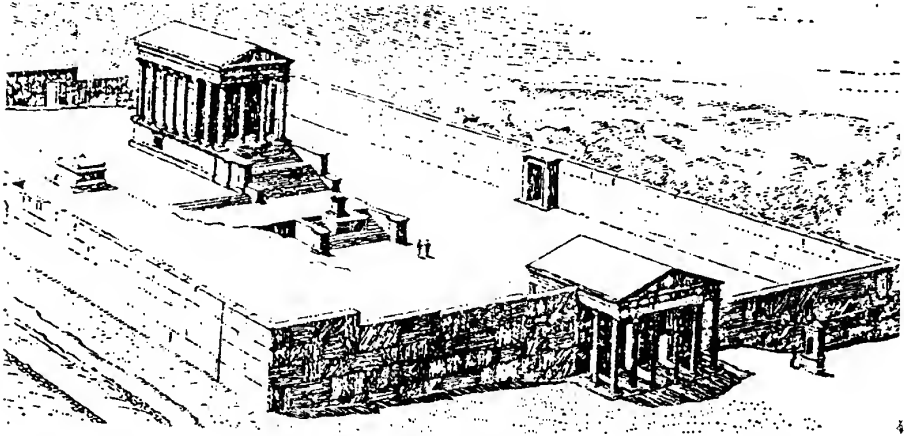
الهيكل المركزي في معبد حصن سليمان

من هذه الفترة لا نرى الا القليل ، فالمعبد الحالي يعود الى نهاية القرن الثاني ، أو الثالث الميلادي ( زمن السلالة السيفيرية - البرقاوية السورية التي بدأت في ١٩٣ وانتتهت في ٢٣٩ م ) (٧) . وقد شُيد هيكله المركزي على منصة عالية وزوّد بدرج عريض يتألف من ٣٩ درجة بينها سطّحتان تحملان المذابح ، وضوعفت جدران حجرته الاصلية بأنصاف أعمدة وفق الاسلوب المشبّه بالمعبد ، وذلك شكل روماني شاع في عالم البحر المتوسط ليناسب الذوق الرائج وقت تجديد المعبد . لكن الباحة الرحبة

المحيطة بالهيكل بطول ١٣٤ مترا وعرض ٨٥، والمعدة لمواكب الطواف ، ظلت أمينة على التقاليد الكنعانية السورية ، وكذلك الاسوار المشيدة بحجارة ضخمة يصل طول بعضها الى عشرة امتار بسمك مترين ونصف .

ويرجح ان الذين قاموا على اعادة تشييد المعبد كانوا جماعة من سراة المنطقة يقومون على سدانة المعبد وتضمهم جمعية اخوية خاصة بهم (٨) .

ان معبد « حصن سليمان » هو أكثر المعابد السورية القديمة سلامة بعد معبد جوبيتر في بعلبك ومعبد بل في تدمر ، واذا كان معبد بعلبك معبدا أشرف على تحسينه الاباطرة الرومان فان معبد بيتوخيخي هو من صنع المواطنين .



منظر تخيلي لمعبد حصن سليمان ( من وضع المهندس هاش )

في الشمال الغربي من سورية تمتد ، في محافظتي حلب وادلب ، سلسلة جبلية يسميها الغربيون الكتلة الكلسية ( ولا نعرف سبب هذه التسمية فمعظم جبال سورية كلسية ) وتضم جبال سمعان والاعلى وباريشا والوسطاني والزاوية ، وفيها أكثر من سبعمائة موقع اثري تعود للعصر الروماني والبيزنطي ، ومطالع العصر العربي الاسلامي في سورية ( اواخر القرن الاول حتى الثامن للميلاد ) كانت هذه المواقع تعرف باسم « المدن الميتة » وفي الحقيقة انها لم تكن مدنا بل بلدان صغيرة وقرى بادت تاركة معالم وأوابد كثيرة . وفي احصاء قام به جورج تات وفريقه بقي من هذه البلدات والقرى نحو ستين محتفظة بمنازلها القديمة ونواذيرها ومعابدها وكنائسها وأديرتها وحماماتها وقبورها(٩) ، وهي تشكل تراثا رائعا أقامه مواطنون سوريون على أحسن ما يكون من

الاتقان والجمال والزخرفة في بيئة قليلة المطر كثيرة الحجارة ، وأنشأوا مدرجاتها الزراعية ورووها بالصهاريج الممتلئة بماء المطر . . لقد بنوا كل المنازل والمنشآت المدنية والدينية بلا استثناء تقريبا بالحجر النحيت المتين الجميل ، المتماسك بلا اية مونة، الذي اكتسب مع الزمن لونا ورديا أو برونزيا مذهبا يروق في العين ويخلب النفس. ويغلب على هذه البني والمنشآت البساطة مع الانسجام والتساق ، وتنتصب روائع من الفن السوري لا يدانها فن معاصر في الشرق والغرب . وفي مقدمة هذه الروائع مجمع كنيسة القديس سمعان العمودي .

تقع كنيسة القديس سمعان العمودي المعروفة حاليا باسم **قلعة سمعان في الجبل** المعروفة بهذا الاسم والمطل على سهل عفرين الى الشمال الغربي من حلب قرب بلدة دارة عزّة على طريق عفرين ، وبقرها القرية المعروفة باسم دير سمعان واسمها القديم تيلانيسوس ، وتربطها بالقلعة طريق مقدسة .

كان القديس سمعان بالاصل راهبا من أسرة رعاة بسطاء يؤمن الناس بكراماته وينسبون له بعض المعجزات ، وقد عاش على عمود كان يزيد في ارتفاعه حتى بلغ أربعين ذراعا ( ٢١ مترا ) وقلده في ذلك عموديون كثيرون . ويقال انه عاش ٣٩ عاما على العمود حتى توفي في ٤٥٩ أو ٤٦٠ م ، ونقلت رفاته الى انطاكية بالقوة ثم الى جوار القسطنطينية .

بنيت على ذكرى القديس سمعان أشهر كنائس سورية بل كنائس الشرق في زمن الامبراطورين ليون وزينون على يد معماريين سوريين . وانتهى العمل في هذه الكنيسة عام ١٤٩٠ أو ١٤٩١ وكان تصميمها على شكل صليب يتوسطه مثنى ، كانت له في الراجح قبة ضخمة من الخشب . والمثنى يحف بالعمود أو بقايا العمود الذي كان يعيش فوقه القديس سمعان . وأضلاع الصليب الاربعة هي في الواقع اربع كنائس بازيليكية ، كل منها بثلاثة أجنحة . وفي صدر الكنيسة الشرقية منها ثلاث حنيات . تطور مجمّع الكنيسة مع الزمن وأحيط بسور في القرن السادس وأصبحت مساحة منشآته نحو ١٢ ألف متر مربع ، منها معمودية أماكن للرهبان وفنادق للحجاج المتوافدين من كل بلاد العالم القديم حتى من فرنسا وانكلترا ، ومنها فندق أقامه حجارو تل عقبرين ، وتربط بين كل هذه المباني طريق مقدسة . وعند احتلال البيزنطيين للمكان مرة أخرى في القرن العاشر جعلوه بمثابة قلعة دعموها بسبعة وعشرين برجاً ، وقد ركز عليها الحمدانيون جهدهم حتى استعادوها (١٠) .

ومن اللافت للنظر في عمارة الكنيسة المصلّبة أو الكنائس المتصالية ، وفي كل هذا المجمع الكنسي ، صفاء الخطوط وتساق العناصر وتناغمها وأناقته ولطافة الزخارف المذهبة التي تدور بالابواب والنوافذ والاقواس والسواكف كأنها حواش

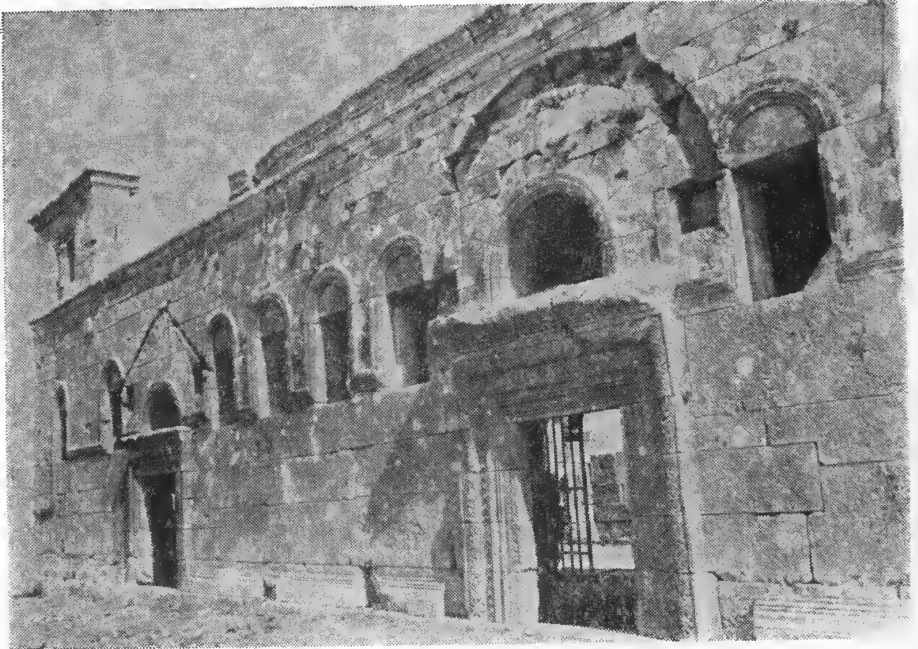


كنيسة القديس سيمان

مطرزة . والتيجان تميل أوراقها كأنها ترتعش في هبوب الريح . ان هذا الاسلوب السوري رومانسي يسبق الطراز الروماني في أوروبا بستمائة عام . . ويقول هورست كلنغل انها أجمل العمائر المسيحية في بلدان المشرق على الإطلاق (١١) .

واذا كانت كنيسة سمعان هي جوهرة الكنائس الاحتفالية الضخمة فان لؤلؤة الكنائس القروية هي ولا شك **كنيسة قلب اللوزة** ، وقلب اللوزة قرية بسيطة قائمة على ذروة من ذرى الجبل الاعلى . الطريق اليها يتفرع من طريق حلب - انطاكية غير بعيد عن نقطة الحدود في باب الهوا . تنفرد كنيسة قلب اللوزة ، التي يرجعها جورج شالانكو لمنتصف القرن الخامس الميلادي (١٢) ، بأصانة تصميمها ، فالجناح الرئيسي ، أي الاوسط ، في هذه الكنيسة ذات الطراز البازيليكي لا يقوم على أعمدة بل على دعائم متينة ضخمة تحمل أقواسا واسعة المدى ، تؤمن اندماج الجناحين الجانبيين بالجناح الاوسط الذي ينتهي بقوس واسعة توتر حنية الصدر وذلك كله يضيف الوحدة على جسم الكنيسة من الداخل ، هذا وان هذه الدعائم المتينة من شأنها أن تصون البناء عند الزلازل ، وبقاء كنيسة قلب اللوزة بشكل شبه كامل حتى الان دلالة على سلامة هذا الانشاء .

وفي كنيسة قلب اللوزة تجديد آخر وهو بروز حنية الكنيسة نحو الخارج وتحميل نضدها على أعمدة خارجية تتخللها ثلاث نوافذ ، وقد تم تقليد هذا الطراز في كنيسة براد وكنيسة الويحة وكنيسة الرصافة وهي من القرن السادس الميلادي .



كنيسة قلب اللوزة

وللكنيسة خمسة مداخل ، الرئيسي منها في الجهة الغربية على شكل بوابة ذات رواق بين برجين بثلاثة طوابق ، يصعد منها المصلون ، اذا كثروا ، الى سطح هذه البوابة وشرفاتها ، والى منوري الجناحين الجانبيين ، ويطلون على داخل الكنيسة لمتابعة الطقوس .

والإضاءة في كنيسة قلب اللوزة موفقة جداً ، ففي كل من الجناحين تسع نوافذ ، وللجناح الرئيسي منوران في كل منهما إحدى عشرة نافذة حتى لتبدو الكنيسة غارقة في النور . والنور موزع بتوازن وتساقق بفضل اتساع مدى الاقواس لدرجة أن هذا البنيان الحجري الثقيل يبدو وكأنه يتلاشى في الفضاء . ان هذه الزايا ، فضلا عن روعة الواجهات وأناقة الزخارف ورسائنها ، تجعل من كنيسة قلب اللوزة قمة في فن العمارة السوري أيام البيزنطيين . وفي هذا المعنى يقول جورج شالانكو أنها قمة العمارة في جبل بيلوس ، وقد بلغت هذه القمة بفضل مهارة فنان كبير ، ويضيف شالانكو : « هذا الفنان ليس أجنبيا إذ أنه استقى عمله من تقليد نعرف أصوله وتطوره من أطلال المنشآت الأخرى التي تنتشر في تلك الأرجاء » (١٢) .

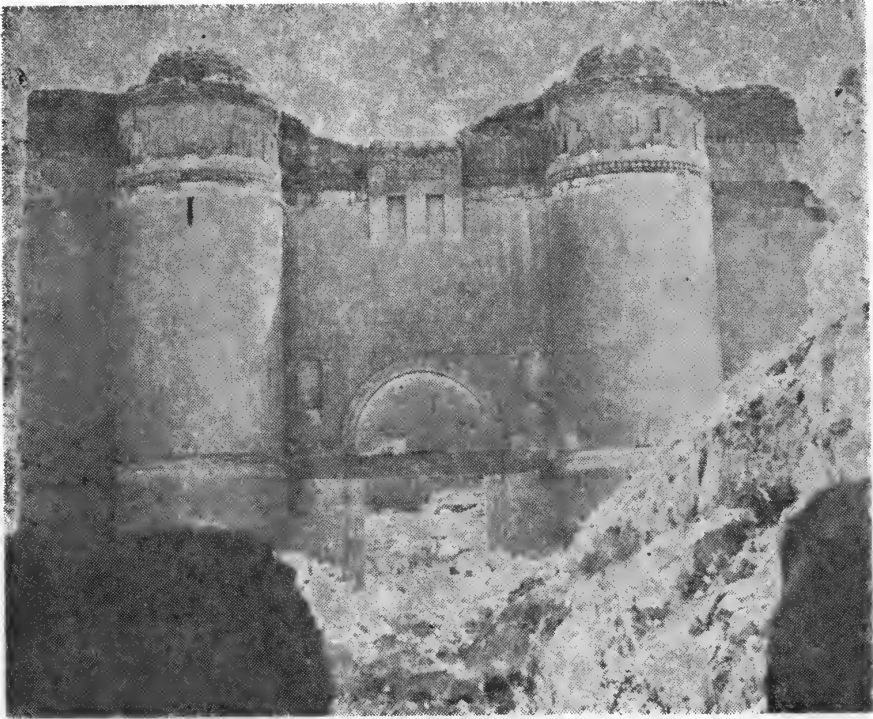


وثمة موقع اموي لا تؤدي اليه الآن طريق ، لكنه يمكن أن يطال ببعض المشقة من الطريق الممتدة من تدمر الى الرصافة ، وهذا الموقع هو المعروف باسم **قصر الحير الشرقي** تمييزا له عن قصر الحير الغربي ( المعاد بناء قسم منه في متحف دمشق ) . لكن قصر الحير الشرقي ليس قصرا أو حصنا فحسب ، فهو يضم في الحقيقة قصرا وحماما وبستانا وشبكة ري وبلدة محصنة أنشأها الحمصيون لهشام بن عبد الملك . ولا أراني محتاجا لأن أوضح لم أقام الامويون ، وبخاصة هشام بن عبد الملك ، القصور من العقبة حتى الفرات ، فالتعليقات كثيرة ، فمن قائل ان الهدف هو القرب من مراكز القبائل والتقوي بها والهروب من أجواء البلاط ، ومن قائل ان الغاية كانت استتباب الامن ، وهناك من يرى أن المتوخى كان الترويح عن النفس أو الصيد والقنص .

وكل ذلك محتمل . ولكن الطريق المارة بقصر الحير كانت منذ الالف الثاني على الأقل طريق تجارة وقوافل ، موفرة الينابيع والخيرات ومحمية بالجبال التدمرية ، ولا بد من تأمين حراسة لها بنقاط حصينة هي حصون سميت قصورا **Castra** . فاذا أمنت الطريق أمكن إقامة مشاريع استصلاح وسدود وقنوات ومزارع يقيم فيها وبقربها العاملون والمشفون والجنود ، وكذلك الراغبون في الترويح عن النفس بمختلف الطرق .

يقع قصر الحير الشرقي على بعد ١٠٥ كم شمال شرق مدينة تدمر ، قريبا من قرية الطيبة ، وقد بني عام ١١٠هـ / ( ٧٢٨ ) م . وأكبر منشآت الموقع هي المدينة





واجهة قصر الحير الشرقي

المحصنة المعروفة باسم القصر الكبير ، وهي مربعة الشكل ( ١٧٠ × ١٧٠ م ) . بنيت بمداميك من الحجر الكلسي المنحوت ، لها أربعة أبواب في منتصف الاضلاع ، تتصل بشوارع متعامدة الى باحة مركزية في وسط المدينة ، يحيط بها رواق معمد ، وفي منتصفها صهريج واسع سعته ثلاثة آلاف متر مكعب مبني بألواح من القرميد ، والسور الخارجي مدعم بأبراج نصف اسطوانية في أعلاها غرف للحراسة ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية جامع هشام - وهو صورة مصغرة عن جامع بني أمية بدمشق - ودار الامارة ومعاصر الزيتون .

أما ما يسمى بالقصر الصغير فهو مربع الشكل ( ٧٠ × ٧٠ م ) ، أيضا أسواره مدعمة بأبراج نصف مستديرة بالحجر الكلسي المنحوت المتناوب مع مداميك الأجر ، وهو مزين بالزخارف الجصية الجميلة التي تزين الاقسام العلوية من البرجين على جانبي الباب في الجدار الغربي ، وفي وسط القصر بركة لحفظ المياه ، ويحيط بالباحة رواق محمول على أعمدة ، وهو يحدد مجموعة الغرف التي تفتح الى الباحة داخل الرواق ، وهناك درج في الزاوية الشمالية من الرواق الغربي كان يؤدي الى الطابق



الثاني في القصر . وهذا البناء الذي يعرف بالقصر لعب ادوارا أخرى خلال تاريخه .  
وتقوم دائرة آثار تدمر بصيانه وترميمه .

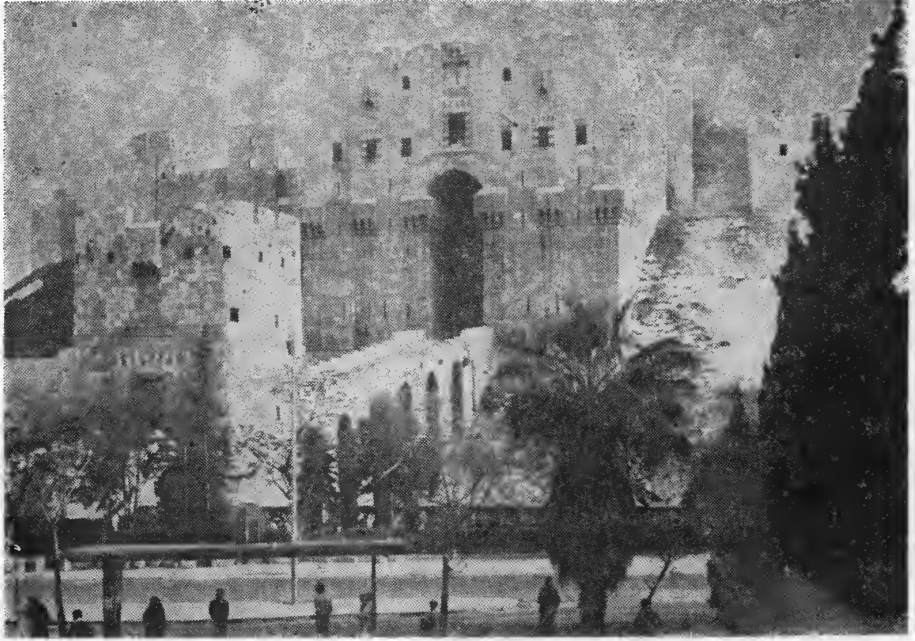
والحمام ( ٥٠ × ٣٠ م ) يقع شمالي القصرين ، ويتألف من ثلاثة أقسام: البارد ،  
والدافئ والحر الذي يقع فوق القبو الذي يحوي بيت النار ( الهيبوكوست ) ،  
وأساساته والأقسام السفلى منه هي من الحجر ، أما الأجزاء العلوية فهي من القرميد  
المغطى بالجص ، وكانت تغطي الأرضية وقسما من الجدران ألواح من الرخام .

أما ما يعرف بالبستان فهو مشروع زراعي عظيم يمتد شرقي القصرين ، محيطه  
١٦ كم ، طوله ٦ كم وعرضه ٣ كم تقريبا . له سور من الحجر المنحوت المدعم بأبراج  
نصف اسطوانية من الداخل والخارج ، له باب غربي وباب في الجدار الشرقي ،  
ولا تزال أساساته وأجزاء من زاويته الجنوبية قائمة . وهناك القناة التي تصل حتى  
موقع الكوم على امتداد وادي السوق بطول ٣٠ كم وهي مشيدة بالحجر المنحوت  
ولا تزال قائمة مغمورة بالتربة كانت تجلب المياه الى موقع قصر الحير الشرقي ،  
وتسقي البستان والسكان ، كما كان يستفاد منها أيضا في تشغيل طاحونة في نقطة  
دخولها الى البستان في الزاوية الشمالية . واكتشفت دائرة آثار تدمر عام ١٩٧٨  
قناة للتصريف طولها ٥ كم ، مشيدة بأحجار منحوتة لسقاية السهل الواسع غربي  
القصرين ، وهي تمتد غربي القصر الكبير ( ٤ كم ) وتتفرع جداولها الى الجنوب لتسقي  
سهل المنايف .

بقيت هذه الاطلال عامرة حتى نهاية القرن الرابع الميلادي ، مزدهرة بتجاريتها  
وصلاتها مع مدن الفرات وحلب ، وظلت محطة على الطريق بين حلب والبصرة حتى  
افتتاح قناة السويس . وقد مر بها كثير من الرحالة والمسافرين ومنهم السيد روسو  
قنصل فرنسا في حلب عام ١٨٠٨ وشاهد لوحة مكتوبة على عضادة الجامع تقول ( أمر  
ببناء هذه المدينة عبد الله هشام على يد سليمان بن عبيد من حمص . . سنة ١١١هـ ) (١٤)  
وتدل بعض التيجان والزخارف المعمارية والكتابات التدمرية واليونانية « من القرن  
الثاني الميلادي » أن حصنا تدمريا كان فيه قبل أن يقوم هشام ببناء منشآته المذكورة  
وقد يكون اسم الموقع « ادادا » محطة على الطريق بين تدمر وسورا على الفرات .

\* \* \*

أما قلعة حلب فليس في دنيا العرب والاسلام اروع ولا أمتع منها ، واذا كانت قلعة  
الحصن النموذج الاكمل لفن التحصين العسكري لدى الفرنجة فان قلعة حلب النموذج  
الاكمل لفن التحصين العربي الاسلامي . وفي بلاد الشام نظمت سلسلة من القلاع المنيعة  
لم تتجاوزها جحافل الصليبيين وهي قائمة حتى اليوم شاهدة على أيام مجيدة .



مدخل قلعة حلب

ونتعرف هنا على قلعة منها هي **قلعة جبر** ، التي كان انقاذها من مكاسب حملة الفرات .

تطل قلعة جبر على بحيرة الأسد اطلالة شامخة في منظر اخاذ قل نظيره ... وكانت في الاصل تبعد ٤ كم عن الفرات ثم أحاط بها الماء من كل جانب الا من ممر ضيق ترتفع ذروة القلعة ٣٤٧ مترا فوق سطح البحر ، و ٤٧ عن منسوب الماء الحالي، طولها ٣٢٠ مترا وعرضها ١٧٠ ويحيط بها سوران مدعمان بخمسة وثلاثين برجاً بعضها مضلع ( مخمس أو مسدس أو مثنى ) وبعضها مستدير أو شبه مستدير أو مضلع على قاعدة مستديرة أو مستديرة على قاعدة مضلعة . في وسط القلعة مسجد جامع بمئذنة مستديرة ذات قاعدة مربعة من عهد نور الدين محمود بن زنكي ، وآثار مبان مختلفة عفا عليها الزمن .

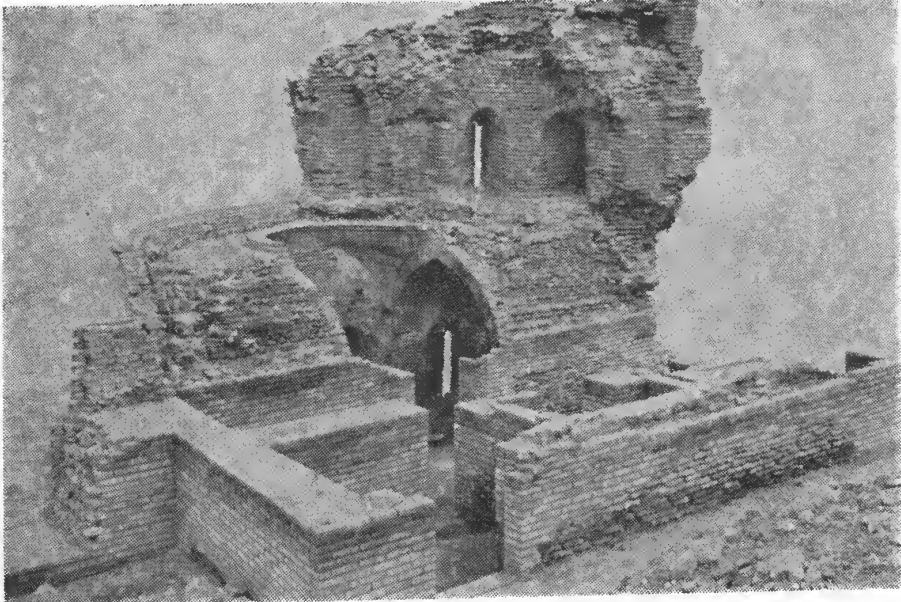
ربما كان أصل القلعة يعود الى عرب ما قبل الاسلام اذ يذكر ابن خلكان في وفيات الاعيان أن دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة بنى هذه القلعة فنسبت له وسميت قلعة دوسر أو الدورسرية ، ولعل العثور على نقد بيزنطي وفخار بيزنطي من أيام النعمان أيضاً ، يؤيد ذلك . أما تسميتها بقلعة جبر فيرجع الى القرن الخامس

الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) حين كانت في حوزة جعبر بن سابق القشيري ، ثم أخذها منه السلطان السلجوقي ملكشاه بن الب أرسلان ( ٣٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ) ، ولقي عماد الدين زنكي مصرعه أمام أبوابها ( ١١٤٦ م ) لكن ابنه نور الدين محمود بن زنكي ٥٦٤ هـ ( ١١٦٨ م ) استولى عليها . ووقعت بعد ذلك في ملك الدولة الايوبية وتملكها الملك الحافظ أحد أبناء الملك العادل ٤٢ سنة ، ثم آلت لاخته ضيفة خاتون . زرع هولاء فيها الخراب ( ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م ) وظلت خرابا على تلك الحالة السيئة حتى تم تجديدها في عهد السلطان الناصر بن قلاوون بدءا بعام ٧٣٥ هـ ( ١٣٣٤ م ) عن طريق تنكر والي الشام الذي أرسل لها الرجال والصناع بالالاف وكلفت أموالا طائلة أرهقت مملكة حلب ، وكانت آنئذ في وضع حسن بل ممتاز لها جسر على الفرات وخذق ومدخل منيع وباشورة وكل لوازم العيش والدفاع .

اهملت القلعة في العصر العثماني وبقرها غرق سليمان شاه جد بني عثمان وكان قبره بجوارها الى وقت قريب (١٥) .

ان طرافة قلعة جعبر ، فضلا عن شموخها وتحكمها سابقا بواحد من أهم معابر الفرات الى بلاد الشام ، جاءت من كونها مشيدة بالأجر المشكل هندسيا سواء من حيث البنية أو من حيث الزخرفة وان مصممها رأوا أن تنوع شكل الابراج من المربع الى الخمس الى المسدس الى المثلث الى المستدير من شأنه أن يبعد عنها الرقابة ويضفي جمالا على جمالها .

تلك هي بعض ما تزهو به آثار بلادنا ، موروثات أبدعتها الايدي الماهرة لمواطنينا القدامى ، صنعوها من حجارة هذه الارض ومن تربتها وتركوها أمانة لنا .



أحد أبراج قلعة جعبر

## الحواشي

- راجع :  
J. P. REY - COQUAIS, *Aradus et sa pérée*, Paris , ( 1974 ) , P. 235 - 236 .
- المرجع السابق ص ٢١٣ و ٢١٤ .  
ان هذا الامر غير مؤكد بوضوح وقد أستنتج من أحد النصوص المنقوشة في المبد راجع :  
J.P. REY - COQUAIS , *Inscriptions grecques et latines de la Syrie*, T. VII, (1970) No. 4028 et pages 65 - 66 .
- في محاضرة ألقاها في جامعة اليرموك في ٢١ شباط ١٩٩٠ ولم تنشر بعد .  
شوقي شمت - قلعة سمعان، دمشق (١٩٨٤) ص ١٩ - ٢٤ .
- هورست كلنفيل ، آثار سورية القديمة ( تعريب قاسم طوير ) دمشق (١٩٨٥) ص ١٣٢ جورج شالكو ، كنيسة قلب لوزة ، (تعريب عدنان البني ) الحوليات الاثرية العربية السورية ٢٤ ، ( ١٩٧٤ ) ص ٢٢٧ .
- المرجع السابق ص ٢٢٦ .  
راجع : د. عدنان البني ، تدمر ، أثرها تاريخيا ، سياحيا ، الفصل الاخير في مختلف الطبعات (ص ١٣٣ من الطبعة الثالثة ١٩٧٧) .  
المعلومات التاريخية عن قلعة جعبر اعتمدنا فيها أساسا على المرجع التالي :  
عبد الرزاق زقزاق ، قاعة جعبر ، دمشق (١٩٨٤) ص ١٩ وما بعدها .
- (٦) وقائع المؤتمر التاسع للآثار الكلاسيكية بدمشق ( ١٩٦٩ ) ، الحوليات الاثرية السورية ، العدد ٢١ ، ( ١٩٧١ ) القسم الاجنبي ، ص ٣٣ .
- (٧) اعتمدنا في موضوع عمارة ابلأ - فضلا عن معرفتنا المباشرة بالموقع - تقارير الاستاذ باولو ماتيه مدير البعثة الايطالية في تل مردنيخ التي قدمها للاكاديمية الفرنسية وبخاصة عام ١٩٨٣ وعلى تقاريره المقدمة للمديرية العامة للآثار والمتاحف وأكثرها غير منشور .
- (٨) في الحوليات الاثرية العربية السورية نشرت تقارير التنقيب عن عين دارا وقد نشر الدكتور علي أبو عساف الذي يدير التنقيب في التل مؤلفا واسعا بالالمانية عن هذا المبد ويعمل على نشره بالعربية حاليا .
- (٩) ان كون ماراتوس هو الاسم اليوناني - الروماني لعمرت أمر متفق عليه بين العلماء بلا خوف منذ أيام أرنست رينان ( ١٨٦١ ) الذي اعتمد على مؤلف المؤرخ بلين الاكبر والتحريف ناشيء عن تعذر لفظ العين واطافة اللاحقة ( اوس ) .
- (١٠) وبالنسبة لتاريخ عمرت يرجع الى المؤلف الجديد التالي :  
M. DUNAND et N. SALIBY , *Le temple d'Amrith* , Paris , 1985 .
- (١١) نشر هذا النص أول مرة الاستاذ جان كانتينو في :  
*Inventaire des inscriptions de Palmyre . I ( 1933 ) No. 1 .*

